

تفسير ابن كثير

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون { فأَتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون } وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرا فتمت أربعين ليلة أي يصومها ليلا ونهارا وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرا إلى الطور واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : { وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري } أي قادمون ينزلون قريبا من الطور { وعجلت إليك رب لترضى } أي لتزداد عني رضا { قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري } أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري .

وفي الكتب الإسرائيلية أنه كان اسمه هارون أيضا وكتب ا□ تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى : { وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين } أي عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمرى .

وقوله : { فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا } أي بعدما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم وفيها شرف لهم وهم قوم قد عبدوا غير ا□ ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال : رجع إليهم غضبان أسفا والأسف شدة الغضب وقال مجاهد : غضبان أسفا أي جزعا وقال قتادة والسدي : أسفا حزينا على ما صنع قومه من بعده { قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا } أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والاخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي ا□ { أفتال عليكم العهد } أي في انتظار ما وعدكم ا□ ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم { أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم } أم ههنا بمعنى بل وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا أي بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم { ما أخلفنا موعدا بملكنا } أي عن قدرتنا واختيارنا ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فقذفناها أي ألقيناها عنا .

وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار وهي في رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ويجعل حجرا واحدا حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول وسأل من هارون أن يدعو ^ا أن يستجيب له في دعوته فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له فقال السامري عند ذلك : أسأل ^ا أن يكون عجلا فكان عجلا له خوار أي صوت استدراجا وإمهالا ومحنة واختبارا ولهذا قال : { فكذاك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار } .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عباد بن النجفري حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل فقال له : ما تصنع ؟ فقال : أصنع ما يضر ولا ينفع فقال هارون : اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه ومضى هارون وقال السامري : اللهم إني أسألك أن يخور فخار فكان إذا خار سجدوا له وإذا خار رفعوا رؤوسهم ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال : أعمل ما ينفع ولا يضر وقال السدي كان يخور ويمشي فقالوا : أي الضلال منهم الذين افتننوا بالعجل وعبدوه : { هذا إلهكم وإله موسى فنسي } أي نسيه ههنا وذهب يتطلبه كذا تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقال سماك عن عكرمة عن ابن عباس : { فنسي } أي نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال : { هذا إلهكم وإله موسى } قال : فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط يعني مثله يقول ^ا : { فنسي } أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري قال ^ا تعالى ردا عليهم وتقريعا لهم وبياننا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : { أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا } أي العجل أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه { ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا } أي في دنياهم ولا في آخراهم قال ابن عباس ^Bهما : لا و^ا ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت وقد تقدم في حديث الفتون عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهموت وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل فتورعوا عن الحفير وفعّلوا الأمر الكبير كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد ^ا بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب يعني هل يصلي فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر ^Bهما : انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول ^ا يعني الحسين وهم يسألون عن دم البعوضة